رباعيّات لم يكتبها الخيّام – شكيب جهشان

الرُباعيّات: مُقَطَّعَاتٌ شِعْرِيَّةٌ يَتَأَلَّفُ كُلٌّ مِنْهَا مِنْ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ. هي نوع شعريّ مشهور، عرف به الشاعر الفارسي عمر الخيّام. ولعلها كُتِبَت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي/865 ه.ـ ويأتي العنوان من صيغة الجمع للكلمة العربيّة رباعيّة، والتي تشير إلى قالب من قوالب الشعر الفارسيّ؛ فالرباعيّة مقطوعة شعريّة من أربعة أبيات تدور حول موضوع معيّن، وتكوّن فكرة تامّة. وفيها إمّا أن تتّفق قافية الشطرين الأوّل والثاني مع الرابع، أو تتفق جميع الشطور الأربعة في القافية.

رباعيّات الخيّام:

تتميز رباعيّات الخيّام بلغة سلسة، سهلة البيان بلا تكلّف أو تعقيد، تمسّ صميم حياة البشر، دون تمايز بين طبقات المجتمع، من العالم إلى العامي، ومن ثريها إلى فقيرها، فالجميع يشتاق إلى معرفة مصيره ومثواه وخالقه وجدوى حياته

رباعيّات شكيب جهشان:

في مقدّمة رباعيّاته يقول شكيب جهشان: "يخيل إليَ أنّ هذه الرباعيّات التي أقدمها لك في هذه المجموعة، لا حدود زمنيّة لها، أو بمعنًى أدقّ، فلو حاولت أن أسترجع زمن أيّة رباعيّة منها، لما استطعت، لأنّي أحسُّ أن بعضها رافقني على مدى سنوات قد تطول، بل قد تَمّحي بداياتُها من الوعي الدقيق، وأنّ بعضها الآخر قد يقصر زمنُه حتى ليلوح لي أني عشته أمسِ، أو قبل لحظات. أما الأكيد الراسخ، فهو أنّ هذه التجارب، ذهنيةً كانت أو عاطفيّة، أو واقعيّة، مارستُها بكلّ تفاصيلها وبكل زخمها. وأكيد، وراسخٌ أيضًا، أنّ لهذه الرباعيّات مكانًا وُلدت فيه، وفيه نشأت كذلك، وإن بدا لك أنّ أماكن أخرى عديدة، ومتباعدة، قد تشاركها هذه النشأة وتلك الولادة".

تحليل النصّ:

تفسير القصيدة

المقطع الأوّل

أعطيتُهُ عمري

وثوبَ السفرْ

وقلت طِرْ كالنسرِ

صَوْبَ القمرْ

صفَّق وثَّابًا وما عادَ لي

يا قسوةَ الأبناءِ

أنتِ الحجرْ

نجد في هذه الرباعيّة ثنائيّة الأبوّة والبنوّة، فالشاعر يتّخذ دور الأب ويحدّثنا عن ابنه. لقد أعطى الشّاعرُ عمرَه لابنه وأعطاه الحريّة ومعدّات السفر ليطير عاليًا كالنسر صوب القمر، لكن وباستيحاء من الأمثال العاميّة "قلبي على ولدي، وقلب ولدي على الحجر"، نسمع شاعرنا يقول إنّ هذا الابن بدلًا من تلبية النداء صفّق وبالغ في قفزه، ولم يعد إلى والده. ولعلّ الشاعر هنا يشير إلى مدى تعبه كأب على أبنائه وتضحيته لأجلهم وتتأمين كلّ متطلّباتهم، وحرمان نفسه لأجلهم، ومساعدتهم للتقدّم والارتقاء في الدنيا ليصلوا أعلى مراتب المجد والتألّق فيحتلوا مكانة القمر ويجذبوا كافّة البشر. الأب يعطي لابنه عمره ويتيح له كلّ الإمكانيّات ليسافر وبعلو ويحقّق نفسه، ولكنّ الابن الذي يسعد بهذا العطاء يبالغ في فرحه

وتصفيقه ووثبه لدرجة أنّه ينسى مُعطيه. فيبتعد ولا يعود يلقي بالًا لهذا الأب الذي يبقى قلقًا على ابنه. كم يؤلمنا هذا الوصف الّذي يُظهر لنا معاناة كلّ أب من أجل أبنائه، وبدل أن يلقى منهم التقدير والمبالاة والإحاطة بالحبّ يفقد وجودهم حوله.

المقطع الثاني

وكانَ عمقُ البحرِ

في نظرتِكْ

وكان حولُ اللهِ

في خطوتِكْ

دارتْ بِنا الأيّام يا والدي

فصرْتُ عكازًا

لدى مِشيتِكْ

ما زلنا في هذا المقطع أمام ثنائيّة الأبوّة والبنوّة ولكنّ الأنا المتكلّم هنا يتّخذ دور الابن الّذي كان يرى يستشعر مدى العمق في نظرات والده، ويشعر أنّها عميقة مؤثّرة كالبحار، كما كان يرى قدرة الله في خطوات والده وقوّته ورجولته. هذا الطفل الابن الّذي كان يرى كلّ القوّة والعمق في والده يتابع كبره في السنّ وشيخوخته الّتي يتحوّل عندها إلى عكّاز تسند الأب في مشيته. وفي هذا دلالة على تقلّب الزمن، بحيث لا يبقى القويّ قويًّا ولا الطفل طفلًا، بل لا يبقى إنسان على حاله في زمن دوّار لا يعرف الاستقرار.

المقطع الثالث

أمِّيَ لم تفتح كتابًا

ولمْ

تحترفِ الوعظَ

ونثرَ الحِكمْ

لكنها أوصت، بما أوصِيَتْ

كن صادقًا يا ابني

ولو في الألمْ

ننتقل من علاقة الابن بالأب إلى علاقة الابن بالأمّ؛ المرأة الأولى الّي يتشبّث بها، ويتحدّث هنا عن مدى عمق هذه الأمّ وحكمتها على الرّغم من كونها أمّيّة لا تعرف القراءة ولا الكتابة. هذه الأمّ أوصته بالصدق، وقد ربيت هي بنفسها على الصدق وأوصيَت له، ونراه تورث هذه الوصيّة لابنها، وتؤكّد على ضرورة تمسّكه بالصدق حتّى وإن كان ذلك منبع ألم له. ومن المعروف لنا أنّ الإنسان المتألّم ليس كالإنسان الذي يعيش حالة من الهدوء، ويصعب عليه أن يتعامل بصدق ويحافظ على الصدق ويتناسى ألمه.

المقطع الرابع

قالتْ، وصوت اللهِ

في صوتِها

وأمسكْت، فالبوحُ في

صمتِها

يا صدرُ يا معطاءُ، من قادِرٌ

أن يحبس الشعلةَ

عن زيتها

علاقة الشّاعر بأمّه كعلاقته بالله، فهو يشعر صوت الله في صوتها، ويسمعها تبوح في صمتها. ويلعب الطباق والأوكسيمورون هنا دورهما في رسم صورة شعريّة بارعة وصادقة للأم؛ هذه الأمّ قالت، وعند حديثا سمع الشاعر صوت الله، ثمّ أمسكت؛ أي سكتت وعندها كان صمتها بليغًا سمع فيه الشاعر بوحًا صريحًا صادقًا. ثمّ يخاطب الشاعرة هذا الأم ويصفها بذات الصدر المعطاء الّذي يلغي نفسه لأجل الآخرين. هذه الأم لا تتذمّر ولا تعارض وهي كالشعلة المشتعلة رمزًا لامتداد الكفاح واستمرار العمل. هذه الشعلة لا يمكن لأحد أن يخمدها.

المقطع الخامس

من هُدب عين اللهِ

كانت تُطلُّ

تُلقي على خطوي

دُعاءً وفُلّ

لو عشتُ طولَ العمرِ أدعو لها

لظلَّ في دعوايَ

وردٌ أقلْ

هذه الأمّ تطلّ على ابنها الشّاعر من هُدب عين الله، تصلي له تدعو له بالخير في كلّ خطواته، والشاعر يشعر بمدى كرمها في دعواتها ومدى اهتمامها بها؛ وهو إذ يحاول أن يردّ لها الجميل يعترف بأنّه مهما حاول أن يردّ لها حتّى دعاءها، بقي في دعواه ورد أقلّ؛ أي أنّه سيبقى كصرًا في دعواه ولن يفي هذه الأم حقّها أبدًا. نلاحظ انّ ما يأتي به الشاعر من صور مبتكرة يسحر المتلقّي ويُعمل كلّ حواسّه، كما أنّ صوره الشعريّة تحوّل المفردات العاديّة إلى جرس موسيقي وشعر رائع.

نظرة عامّة:

ما يشغل بال الشاعر في رباعيّاته هو الوجود الإنسانيّ بفلسفة الموت والحياة، الأبوّة والبنوّة، الكفر والإيمان، العلاقة بين الإنسان والخالق. لجأ شكيب جهشان في رباعيّاته إلى التكثيف والمحاورة، فعلى امتداد الديوان محاورةٌ بين الشّاعرُ (الأنا) والآخرَ (هو)، تجعل كلّ رباعيّة في المبنى، ثنائيّةً في الطّرح؛ فما بين الشّاعر والله، وما بين الشّاعر والمرأة، ما بين الشّاعر والأبناء، وما بين الشّاعر ومجتمعه، ما بين الشّاعر وعمر الخيّام، وما بين الأنا الشّاعرة الإنسانيّة المبدعة، والأنا البشريّة. وفي مقاطعنا المختار نجد المحاورة في تلك العلاقات الاجتماعيّة بين الآباء والأبناء، وتُعطينا كلّ رباعيّة حدَثًا،

أو فكرةً أو حوارًا؛ فلأب يحاور ابنه ويعبّر عن ألمه من قسوة الابن ونكرانه للجميل، ثمّ الابن يحاور الوالد ويعبّر عن تبدّل هذا الوالد من القوّة والصلابة والرجولة إلى الكهولة والعجز. ولا يتنازل هذا الابن عن والده لهذا السبب إنّما يجعل من نفسه عكّازًا له. ثمّ تأتي الرباعيّات الثلاث الأخرى لتعرض صورة الأمّ الّتي تطرح بشخصيّها ثنائيّة العلم مقابل الأمّيّة، والكلام مقابل الصمت، ونرى كيف أن الشاعر يعتبرها في كلّ حالاتها نموذجًا لا نظير له في العطاء، فهي الشعلة الّتي لا تُحبَس عن زيتها، وهي الّتي فاق عطاءها كلّ حدود الشعر لدرجة أنّ الشاعر لم يعد يجد للكلام مدى، واعتبر كلّ دعواته لها وكلّ ما يمكن أن يقوله لها وإن استمرّ هذا القول مدى العمر فهو سيبقى وردًا أقلّ!.

من حيث المبنى:

يختار شاعرنا الرباعيّة الشّعريّة قالبًا يصبّ فيه أفكاره، وهذا المبنى بعيدًا عن عنوان الديوان، كان كفيلاً أن يأخذنا إلى رباعيّات الخيّام، تلك الرباعيّات الفارسيّة المشهورة في العديد من اللّغات ومن الحضارات منذ القرن الثاني عشر، ولم يأتِ هذا الاختيار عبثًا إنّما وظّفه الشّاعر خدمةً للمعنى، ونلاحظ في بناء الرباعيّات توافق قافية الشّطريْن الأوّل والثّاني، مع قافية الشّطر الرّابع، أمّ قافية الشّطر الثالث على امتداد الدّيوان فتختار من الحروف والمقاطع ما يلزم الوزن والمعنى فقط:

_____أ

_____أ

_____ب

_____أ

وهذا المبنى الرباعيّ هو مبنى لاهث، لأنّ الفكرة تبدأ وتتنامى وتتهافت نحو نهايتها في أربعة أشطر قصيرة تترك المتلقّي يقفُ بعد كلّ رباعية ليلتقط الأنفاس؛ أنفاس المعنى والفكرة الممثّلة لفلسفةٍ كاملةٍ شغلت بال الإنسان منذ وعيه الأوّل، وقد جاء هذا المبنى ليتحدّى القارئ المشغول في زمن الركض وراء كلّ شيء إلاّ الكلمة، ليستوقفه برهة طالبًا منه التّأمّل في ماهيّة علاقاتنا وحياتنا دون أن يحتلّ من وقته حيّزًا يثنيه عن القراءة. وهذا ما عبّر عنه الشاعر شكيب جهشان إذا قال:

"لقد اخترت لهذه التجارب بناءً رباعيًّا، لما في هذا البناء من قِصَر، وحدّة، ودقّة تصويب، سيّما ونحنُ في عصرٍ أصبح لكلّ لحظة فيه قيمة عظمى، فهو عصر اللهاث المخيف وراء الرفاه المصنوع والمفروض، ولا فسحة فيه لغير ذلك إلّا لمامًا".